السورة التاسعة

الماعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

هذه هي السورة الثامنة في الترتيب التراجعي لسور القرآن الكريم، وهي مؤلّفةٌ من ٢٥ لفظاً، ويصل فيها عدد المواقع اللغويّة التي فاجأ القرآن بها العرب إلى ٣٦ موقعاً.

وتتبدّى الشخصيّة اللغويّة للسورة في لفظ (الماعون) الذي أُطلق اسماً لها، والذي لا نجده في أيّ مكانٍ آخر من القرآن الكريم، وتتبدّى كذلك في التراكيب والتعبيرات التي تستقلّ بها عن غيرها فلا تتكرّر في غيرها من السوَر (يكذّب بالدّين، يدعّ اليتيم، فذلك الذي، ويلٌ للمصلّين، عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون، يمنعون الماعون).

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١ - أرأيت:

رغم ورود هذا الاستعمال مرةً واحدة على الأقلّ في الشعر الجاهليّ نجده وقد اتّخذ مجرىً آخر في القرآن أكثر تنوّعاً. ولْنقارن بين الاستعمال القرآنيّ لهذا الفعل واستعمال النابغة الذبيانيّ (ت١٨ ق.هـ):

أرأيتَ يومَ عُكاظَ حينَ لقِيتَني تحتَ العَجاجِ فما شَقَقتَ غُباري

فمن الواضح أنّ المعنى في البيت لا يتجاوز استحضار الرؤيا، فكأنّه يقول: أتذكُر؟

ولكنّه في القرآن يتّسع، ليستوعب معاني جديدةً مختلفة. إنّه في معظم الاستعمالات القرآنيّة يشير بوضوح إلى معاني (الاعتبار) و (التأمّل) و (التفكير) أكثر منه إلى مجرّد (الرؤية) أو (التذكّر)، ولذلك فإنّه يشير إلى ما لم يقع بعد، على عكس ما في بيت النابغة من إشارةٍ إلى حدثٍ وقع وانتهى، ولذلك يرتبط في القرآن غالباً بشرطٍ يأتي بعده، كما في قوله تعالى:

- ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠]

- ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٠٤ ـ ٢٠٦]

- ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ﴾ [العلق: ١١-١٢]

لقد ارتبط في المواقع القرآنيّة الثلاثة بأداة الشرط (إنْ) وهي مختصّةٌ بالمستقبل، وكان في الموقعين الأوّل والثاني أقرب إلى معنى (ماذا سيحدث؟) أو (ماذا لو حصل؟) وفي الموقع الثالث أقرب إلى معنى (هل يمكن أن يكون؟) من غير أن يعني هذا حصر التعبيرات القرآنيّة في هذه المعاني، فالصياغة القرآنيّة

المتداخلة والمتنوّعة لهذا الفعل كما نرى: (أرأيتَكم، أفرأيتَ، أرأيتَ إنْ) تضفي عليه ظلالاً وأبعاداً غنيّةً أوسع من أن يحيط بها معنىً محدّدٌ واحد.

ويختلف استعمال الفعل في هذه السورة عن جميع الآيات التي استشهدنا بها، فقد تعدّى فيها صراحةً إلى مفعولٍ به (الذي)، ولم يرتبط بحرف شرطٍ بعده، ثم إنّه جاء فيها بمعنى: أتُميّز، أو: أتُدرك؟ أو: أتعْرف؟ ممّا يزيد هذا الاستعمال القرآنيّ في السورة خصوصيّةً واستقلاليّةً.

٢- يَدُعّ:

لا نجد هذا اللفظ في التراث الجاهليّ، لا بالمعنى القرآنيّ ولا بغيره، لذلك وجد المفسّرون أنفسهم مدفوعين إلى اقتراح أكثر من معنىً له، فهو، من خلال الحالات الأربع التي ورد بها في القرآن الكريم، يحمل غالباً معنى الدفع بعنفٍ وغِلظة، وهذا واضحٌ بشكلٍ خاصّ في قوله تعالى:

- ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور: ١٣]

أي تدفعهم الملائكة دفعاً شديداً خشناً. ومع ذلك فقد حمّلوا الفعل في سورة (الماعون) معنىً إضافيّاً هو معنى القهر والظلم ومنع اليتيم من الوصول إلى حقّه.

ولا وجود لهذا اللفظ في الحديث الشريف.

٣ – طعام:

أينما ورد هذا اللفظ في كلامنا فإنّه يعني ما نأكله، حتى إن قلنا: حلّ وقت الطعام، فإنّما نعني: وقت تناول الطعام. ولكنّه في هذه السورة، وفي آيتين مشابهتين من سورتَي (الحاقّة) و (الفجر)، يحمل معنىً جديداً خاصّاً بالقرآن الكريم هو الإطعام، وليس الطعامَ نفسَه، رغم وروده ٢١ مرةً في سوَرٍ أخرى بالمعنى المعتاد، أي الاسم وليس المصدر.

ولا وجود لهذا الاستعمال في الحديث الشريف، وإنّما هو هناك (إطعامٌ) فحسب، كما في قوله ﷺ لمن سأله عن كفّارة الجماع في رمضان "فهل تجد إطعامَ ستّين مسكيناً؟"[1]

٤- المصلّين:

مرّ بنا في سورة (الكوثر) كيف حمل الفعل (صلّى) معنىً إسلاميّاً جديداً مختلفاً عن المعنى الجاهليّ له، وهكذا سائر مشتقّات هذا الفعل في القرآن الكريم.

٥- ويلٌ:

يرِد هذا اللفظ التحذيريّ في الشعر الجاهليّ مضافاً على الأغلب إلى اسمٍ يليه. ومن ذلك قول الحارث بن عبّاد (ت ٧٤ ق.هـ):

ياويلَ أمِّكمُ مِن جَمْعِ سادتِنـا　　كتائباً كالرُبى والقَطرُ ينسكبُ

وقول عَبِيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.هـ):

وَيْلُمِّهـا صاحبـاً يُصاحبُهـا　　مُعتسِفُ الأرضِ مُقفِرٌ جَهَـلُ

ونجده متعدّياً باللام في بيتين فحسب:

له الويلُ إن أمسَى ولا أمُّ هاشمٍ　　قريبٌ، ولا البَسباسةُ ابنةُ يشكُرا

امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ)

ويـلٌ لشيبـانَ إذا صبّحتُـها　　وأرسلـتْ بِيضُ الظُبا شعاعَها

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

ورغم أنّه يتكرّر في القرآن ٢٧ مرةً فإنّه لا يرد إلاّ متعدّياً بهذه اللام، فإذا تجرّد منها كان لا بدّ أن يُضاف إلى ضمير، وتتكرّر هذه الحالة الأخيرة ١٣ مرّةً في القرآن الكريم، وإن خلا منها الشعر الجاهليّ تماماً، كما في الآيات:

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٨٤، حديث رقم ١٨٣٤.

obeikan.com

- ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ ﴾ [المائدة: ٣١]
- ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ ﴾ [الكهف: ٤٩]
- ﴿ وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ ﴾ [الأحقاف: ١٧]
- ﴿ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ [طه: ٦١]
- ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾ [يس: ٥٢]

وعلى أهمّية هذا التميّز للّفظ القرآني، وغزارةِ تكراره، فإنّه يكتسب جدّته من حقيقة أنّ أكثر المفسّرين يذهبون إلى أنّ (ويل) المتعدّي باللام في القرآن هو (ويلٌ) خاصٌّ ومختلف، لأنّه هنا ليس مجرّد لفظٍ تحذيريٍّ كأخيه الذي يأتي مضافاً، وإنّما هو مصطلحٌ إسلاميٌّ جديدٌ يشير إلى "وادٍ في جهنّم يسيل من صديد أهلها" وهم يعتمدون في هذا التفسير على بعض الأحاديث النبويّة الشريفة.

٦- صَلاتهم:

ينطبق على هذا اللفظ ما انطبق على لفظ (المصلّين) فيما يحمله من معنىً جديد.

٧- ساهُون:

لم أجد هذا اللفظ أو مشتقّاته في الشعر الجاهليّ بمعناه القرآنيّ؛ أي: الغافلون، أو غير المبالين، أو المهملون للصلاة، أو المؤخّرون لها عن وقتها. وأقدم شاهدٍ له وجدته عند شاعرٍ مخضرمٍ هو تميم بن أبيّ (ت٣٧هـ)، ولكنّه جاء في معنىً مختلف:

هَيْفٌ هَدوجُ الضحى سَهْوٌ مَناكِبُها يكسو بها بالعَشيّاتِ العَثانينا

ولا نجد اللفظ بهذه الصيغة في الحديث الشريف إلاّ في معرض شرح الآية: "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن الذين هم عن صلاتهم ساهون؟ قال: إضاعة الوقت".[1]

(١) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٢، ص٢١٤، حديث رقم ٢٩٨٣.

٨- يراؤون:

أقدم شاهدٍ لهذا اللفظ في الشعر العربيّ نعثر عليه لدى شاعرٍ مخضرمٍ آخر هو الأعشى (ت٧هـ). ولكنّ اللفظ عنده لا يتجاوز معنى (الإظهار) أو (الإعلان)، وهو يتحدّث عن دعواه ودعوى صديقه الذي يخاصمه، بأنّهما معاً على حقّ:

أراني وعَمْراً بيننا دَقُّ مَنشِمٍ ... فلم يبقَ إلاّ أن أُجَنَّ ويَكلَبا
كِلانا يُرائي أنّه غيرُ ظالمٍ ... فأعزبْتُ حِلمي، أو هو اليومَ أعزَبا

وواضحٌ أنّ اللفظ القرآنيّ يعني مَن يُظهر شيئاً ويُبطن غيره، وهو النفاق وعدم الخشوع في الصلاة وعدم ابتغاء مرضاة الله في العمل، هذا مع خصوصيّة علاقة اللفظ بما حوله، فهو لم يتعدَّ إلى شيءٍ بعده، على حين تعدّى في بيت الأعشى إلى المصدر المؤوّل (أنّه غير ظالمٍ). وفي الحديث "مَن يرائي يُرائي اللهُ به".[١]

٩- الماعون:

نجد هذا اللفظ مرةً أو مرّتين في الشعر الجاهليّ/ المخضرم، ولكن بمعنى (المطر). ويستخدمه الأعشى (ت٧هـ) حين يمدح قيس بن مَعْدِيكَرِب، فيشبّه عطاءه بالمطر، ويقول إنّ الفرات ليس بأجود من مطره أو عطائه حين يقلّ الغيث وتختفي الغيوم من السماء:

بأجوَدَ منه بماعونِهِ ... إذا ما سماؤهُمُ لم تَغِمْ

كما نجد اللفظ في بيتٍ لشاعرٍ مجهولٍ يستشهد به ابن منظور[٢]، ويصف فيه الشاعر هطول المطر الغزير من السحاب الأبيض (الصبير) عندما تهبّ عليه ريح الجنوب الحارّة (الهَيف):

يمجُّ صبيرُهُ الماعونَ مَجّاً ... إذا نَسَمٌ مِن الهَيْفِ اعتراهُ

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج١٧، ص٤٥٣، حديث رقم ١١٣٥٧.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط.١، (د. ت.)، ج١٥، ص٣٦٤.

فكأنّما ارتبط لفظ (الماعون) في ذهن العربيّ بالخير، لأنّ المطر والماء عماد حياته وأصل معيشته، فأطلق القرآن هذا اللفظ، لأوّل مرّة، على أيّ نوعٍ من العطاء: الزكاة، الصدقة، الحقّ، الطاعة. ويذهب أهل اللغة إلى أنّه كلّ ما يتعاطاه الناس ويستعيرونه في حياتهم اليوميّة: كالفأس والقِدر والدلو والمنخل والإبرة والقدّاحة والميزان والملح والكلأ والماء.

وقيل إنّ اللفظ جاء من (المَعْن) وهو الشيء القليل، فكأنّ هذه الأشياء من قلّة القيمة بحيث لا يجوز منعها عن الآخرين، كما أنّ الزكاة والصدقة لا يساويان من مال المرء إلاّ قليلاً من كثير.

ويقتصر ورود اللفظ على هذه السورة فلا يتكرّر في غيرها. ولا نجد اللفظ في الحديث الشريف ولكنّه يرِد مرّةً على لسان عبد الله بن مسعود ﷺ يشرح اللفظ القرآنيّ: "كنّا نَعدّ الماعونَ على عهد رسول الله ﷺ عاريةً؛ الدَّلْو، والقِدْر".[1]

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- أرأيت الذي:

إنّها السورة الوحيدة في القرآن التي تبدأ بهذه البداية، بل هي العمل الأدبيّ الوحيد الذي يُفتتح في التراث العربيّ بهذا النوع من التساؤل التقريريّ.

وقد اختلف فيه المفسّرون: أهو فعلٌ بصريٌّ بمعنى الرؤية الحقيقيّة، وإذن فلا يحتاج إلى مفعولٍ ثانٍ وقد استوفى حقّه بوجود مفعوله (الذي)؟ أم هو فعلٌ قلبيٌّ (أي بمعنى: ظنّ) يحتاج إلى مفعولين، ولا بدّ إذن من تقدير مفعولٍ ثانٍ له لم يظهر في السورة، أي: (أرأيتَه مَن هو؟)

ويتكرّر هذا التعبير في القرآن ثلاث مرّات، رغم أن الفعل (أرأيت) يتكرّر بهذا المعنى، ولكن في غير هذا الاستعمال، ١٣ مرّة، هكذا في صيغة المفرد، و٢١ مرّةً في صيغة الجمع (أرأيتم).

---

(١) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٣، حديث رقم ٧٥٧٨.

٢- يكذّب بـ:

لم نتوقّف عند هذا الفعل حين تحدّثنا عن ألفاظ السورة؛ إذ لم تَخلُ لغة الشعراء الجاهليّين من مثل هذا اللفظ، كما في قولهم:

فمَنْ يَكُ لم يَلْقَ البيـانَ فإنّه سيأتيْهِ بالأنبـاءِ مَن لا يُكَذِّبُ

بِشْر بن أبي خازم (ت٢٢ ق.هـ)

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرّجـالَ إذا ما كَذَّبَ الليثُ عن أقرانِهِ صَدَقا

زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ ق.هـ)

ولكنّ ما يجعله أدخَلَ بباب العلاقات منه بباب الألفاظ هو تعدّيه بالباء، وهو استعمالٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم لم يعرفه الشعر الجاهليّ.

ولو استقْرينا لغتنا الأدبيّة اليوم، ولغة الأدباء والشعراء على مرّ العصور، قبل القرآن وبعده، لوجدناها تخلو تماماً من هذا النوع من التعدية للفعل، لأنّه يتعدّى بنفسه عادةً من غير الاستعانة بالباء، كما في النماذج التالية:

فلا يُكَذَّبُ مِن ذُبيانَ فاخـرُها إذا القبائلُ عَدّت مجدَها الكُبَـرُ

الفرزدق (ت١١٠هـ)

تَنِمُّ عليه عَينُهُ، ولســانُهُ يُكذِّبُ مافي العينِ، والعينُ أصدقُ

ابن نُباته (ت٤٠٥هـ)

فإن تعدّى عندهم بالباء؛ فبتأثّرٍ واضحٍ أو اقتباسٍ من القرآن الكريم، كقول أبي نُواس (ت١٩٨هـ):

أرأيتَ الذي يُكذِّبُ بالديـ ـنِ فذاكَ الذي يَدُعُّ اليتيمـا

ومن الواضح من استقرائنا للآيات التي ورد فيها هذا الفعل، متعدّياً فيها بالباء أو غير متعدٍّ، وهي كثيرة، أنّ التعدية بالباء لا تكون مع الذين يُكذَّبون -بفتح الذال- وهم غالباً من الأنبياء والرسل، كما في الآيات:

- ﴿ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٦]

- ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ: ٤٥]

- ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩]

وإنّما تقتصر التعدية بالباء على ما يحمله هؤلاء إلى البشر من رسالاتٍ وآياتٍ ونُذُرٍ، كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس: ٩٥]

- ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ ﴾ [الإسراء: ٥٩]

وتتوضّح لنا فكرة التعدية، بالباء أو بغيرها، في آيةٍ واحدةٍ اجتمعت فيها الحالتان:

- ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ ﴾ [الفرقان: ١٩]

فتعدّى الفعل (كذّب) هنا بنفسه إلى مَن يكذّبونه من البشر ﴿ كَذَّبُوكُم ﴾ وتعدّى بالباء إلى أقوال هؤلاء البشر ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾.

٣- يكذّبُ بالدِّين:

تعبيرٌ جديدٌ لا نجده في أيّ مكانٍ آخر من تراثنا، وتنفرد (الماعون) بهذا التعبير؛ فلا يتكرّر في أيّة سورةٍ أخرى.

٤- فذلك الذي:

هذه لغةٌ أضحت تشكّل ظاهرةً في القرآن، وذلك بالاستغناء عن الضمير المنفصل الذي يحتلّ مكانه عادةً في لغتنا ما بين اسم الإشارة واسم الموصول. فنحن نقول:

فذلك هو الذي

فهؤلاء هم الذين

ورغم أنّها ظاهرةٌ لغويّةٌ قرآنيّةٌ، فإنّ هذا التركيب بعينه يقتصر على هذه السّورة فلا يتكرّر في أيّة سورةٍ أخرى.

٥- يدعّ اليتيم:

بغضّ النظر عن جِدّة الفعل (يدعّ)، فإنّ تعديته إلى اليتيم في هذه السورة منحته خصوصيّةً إضافيّة، وكأنّ الدعّ قد أضحى فعلاً خاصّاً باليتيم ومقترناً به. إنّه تعبيرٌ قرآنيٌّ جديد، من ناحية، ثمّ إنّه خاصٌّ بهذه السّورة وحدها فلا يتكرّر في غيرها من السُّوَر، من ناحيةٍ أخرى.

٦- الذين هم:

خلافاً للتقاليد اللغويّة العربيّة في ابتداء الجملة أو العبارة، نجد الآية هنا وقد ابتدأت باسمٍ موصولٍ تابعٍ للفظٍ ورد في آيةٍ سابقةٍ، لأنه صفةٌ له، وهو (المصلّين). إنّها ظاهرةٌ تتكرّر في آياتٍ كثيرة، كما خبِرنا في السّور السابقة، وكما سيمرّ بنا في السُّوَر اللاحقة.

٧- عن صلاتهم ساهون:

إنّ تقديم الخبر على المبتدأ في اللغة العربيّة أمرٌ شائعٌ وعاديّ، ولكنّنا لا نجد قبل القرآن الكريم تقديماً لشبه الجملة الخبر الذي يبدأ بحرف الجرّ (عن) على المبتدأ، بل إنّ هذا النوع من التقديم والتأخير يشكّل ظاهرةً لغويّةً قرآنيّة، فيتكرّر في القرآن ٢٩ مرّةً، فضلاً عن ٣٥ مرّةً أخرى يتقدّم فيها هذا الحرف (عن) أيضاً على العامل فيه، من فعلٍ أو غيره. كما في الآيات:

- ﴿ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٣]
- ﴿ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦]
- ﴿ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٢]
- ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المدّثر: ٤٩]

وهكذا تقدّم شبه الجملة الخبر ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ على المبتدأ (سَاهُونَ) في آية (الماعون)، أما التعبير البشريّ فيأخذ على الأغلب شكلاً من أشكال هذه الصورة:

هم ساهون عن صلاتهم

وهكذا يكون الأسلوب النبويّ أيضاً، كما في قوله ﷺ:

- ..وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته[1]
- ..ونهيتكم عن الانتباذ فانتبذوا، وكلُّ مسْكِرٍ حرام، ونهيتُكم عن زيارةِ القبور فزوروها..[2]
- ..اِقبَلوا مِن مُحسِنِهم وتجاوزوا عن مسيئهم[3]

٨- الذين همْ عن صَلاتِهم ساهون:

لو حاولنا التعبير بلغتنا العاديّة عن معنى هذه الآية للجأنا إلى الجملة الفعليّة بدلاً من الاسميّة، فقلنا:

الذين يسهون عن صلاتهم، أو:

الذين يصلّون وهم ساهون

٩- الذين همْ يراؤون:

مرة أخرى تبتدئ الآية باسم موصولٍ تابعٍ للفظٍ ورد في آيةٍ سبقتها، (المصلّين. الذين) وهي ظاهرةٌ قرآنيّةٌ تردّدت وستتردّد معنًا في آياتٍ كثيرة.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٤، حديث رقم ٨٥٣.

(٢) الأصبحي، مالك بن أنس. **موطأ الإمام مالك**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ط.)، (د. ت.)، ج٢، ص٤٨٥.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٨٣، حديث رقم ٣٥٨٨.

obeikan.com

١٠- الذين همْ يراؤون:

نحن هنا أيضاً أمام الظاهرة القرآنيّة التي مرّت معنا في أكثر من سورة، وهي ظاهرة الاستغناء عن الرابط اللغويّ الذي يربط الجملة بما قبلها، ولو تُرك أمرُ هذه الآية إلى لغتنا البشريّة لقلنا: (والذين).

١١- الذين همْ يراؤون:

شأن هذه الآية كشأن سابقتها ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ﴾ في إثبات الضمير المنفصل بين الاسم الموصول وصِلتِه، وإذا أردنا أن نعبّر بلغتنا عن هذا المعنى استغنينا عن الضمير المنفصل (هم) وقلنا: (الذين يراؤون).

١٢- يمنعون الماعون:

إنّ ما سبق أن قلناه عن تفرّد التعبير القرآنيّ ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ينطبق على هذا التعبير أيضاً، مع الإشارة إلى أنّ التعبيرين كليهما اقتصرا في القرآن على هذه السُورة وحدها.

ثالثاً: السبائك القرآنية

١- أرأيت الذي يكذّب:

هذه سبيكةٌ قرآنيّةٌ يميّزها الفعل التأمّلي الذي افتُتحت به (أرأيت)، والمتلوّ باسم موصولٍ، ثم بفعل. وتتكرّر السبيكة، هي أو سبائك قريبةٌ إليها، عدة مرّاتٍ في القرآن، كقوله تعالى:

- ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]
- ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ [النجم: ٣٣]
- ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ [العلق: ٩]

٢- فذلك الذي يدعّ:

يميّز هذه السبيكةَ ابتداؤها بفاء الإفصاح أو الفصيحة، أو الواقعة في جواب شرطٍ مقدّر، والمرتبطة باسم إشارةٍ، فكأنّه أراد: إن لم تعرفه بعدُ، وأردتَ منّي الإفصاح عنه، فهو ذلك الذي..، ويتلوها اسمٌ موصولٌ هو مع صلته (يدعّ) خبرٌ لاسم الإشارة، مع ملاحظة اختفاء الضمير (هو) كما قدّمنا.

٣- الذين هم عن صلاتهم ساهون:

وهي سبيكةٌ أخرى من السبائك التي تتكرّر في القرآن، وتبدأ بالاسم الموصول المبتدأ والخاصّ بجماعة الذكور (الذين)، ويليه الضمير المنفصل، ثم الجار والمجرور المتقدّمان، وقد تعلّقا بالخبر المؤخّر (ساهون).

٤- الذين هم يراؤون:

وهي سبيكةٌ أقلّ تردّداً في القرآن من سابقتها، وتختلف عنها باختفاء الجارّ والمجرور، وإلاّ لكانت (الذين هم في صلاتهم، أو أعمالهم، يراؤون).

رابعاً: مواقع منفتحة

إنّ أهمّ ما يميّز لغة القرآن الكريم عن لغتنا العاديّة، بل عن لغة الشعر أيضاً كما أثبتنا، الغنى الذي يوشّي الكلمات والتعبيرات، بما تحمله من ظلالٍ وألوانٍ واحتمالاتٍ إعرابيّةٍ تجعل منها لغةً منفتحةً قابلةً للتكيّف والاستجابة لعوامل تطوّر الثقافات والشعوب واختلاف الأماكن والعصور.

وبإمكاننا العثور في هذه السورة على المواقع اللغويّة المنفتحة أو المتجدّدة التالية:

١- أرأيتَ الذي:

عرفنا كيف تعدّدت الآراء في اقتراح معنىً محدّدٍ لهذا التعبير، بطبيعته التساؤليّة التقريريّة التأمّليّة، وكيف اختلفوا في طبيعة الفعل فيه: بصريٌّ هو أم قلبيّ (أي ظنّيّ)، وهل له مفعولٌ واحدٌ مذكور (الذي) أم له مفعولان أحدهما محذوف؟

ومن هذا التعدّد في الآراء والتفسيرات يكتسب التعبير قوّته الانفتاحيّة المتجدّدة.

٢- فذلك الذي:

إنّ اختلاف المفسّرين في إعراب الفاء: أهي استئنافيّةٌ أو عاطفةٌ أو فصيحةٌ أو واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر، واختلافَهم في إعراب (ذلك): أهو مبتدأ، أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ والتقدير (فهو ذلك)، وكذلك اختلافهم في (الذي): أهو نعتٌ لاسم الإشارة، أو ربّما نعتٌ لبدلٍ محذوفٍ منه، والتقدير: فذلك الشخص الذي، أم هو خبرٌ له، هذا الاختلاف والتعدّد في الآراء ممّا يغني العبارة ويضفي عليها صفة الانفتاح.

٣- يكذّب بالدين:

من الواضح أنّه لا بدّ من تقدير مفعولٍ للفعل (يكذّب). فلو ظهر في الآية لكانت شيئاً من هذا القبيل:

يكذّب الرسولَ بالدين

فالباء إذن، ليست مجرّد: "صلةٍ، دخولُها في الكلام وخروجُها واحدٌ" كما يذهب الطبريّ وهو يحاول أن يجد مخرجاً لقراءة من قرأ (أرأيتَ الذي يكذّب الدين) -هكذا بإسقاط الباء-[1]. فقد عرفنا أنّ هذه الباء مختصّةٌ بالأشياء التي يكذَّب بها:

---

(١) الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢٤، ص٦٢٩.

الآيات والمعجزات والكتب السماويّة، وليس بالأنبياء الذين يحملونها، فلا نقول:

يكذِّب بالأنبياء

ولا نقول:

يكذِّب الدِّين

وإنّما نقول:

يكذِّب الأنبياءَ بدينهم

وفضلاً عن ذلك يحمل لفظ (الدِّين) أكثر من معنىً. فهو الرسالة، وهو العقيدة، وهو التوحيد، وهو الحساب، وهو العقاب وما ينتظرنا في الآخرة من جنّة أو نار، وهذا يعيدنا إلى معنى (الدِّين) في (الفاتحة) كما فصّلناه في التعليق علىً قوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

٤ – يدعّ اليتيم:

تعدّدت أقوال المفسّرين في هذا الفعل، وازدادت بذلك طيوفه وأبعاده، فهو عندهم ليس مجرّد دفع لليتيم بشدّةٍ وخشونةٍ فحسب، كما يحمله المعنى الجاهليّ، والأصليّ، لهذه الكلمة، بل هو، إضافةً إلى ذلك، حرمانه من حقوقه ومنعه منها، وقهره وظلمه، وعدمُ إطعامه أو الأخذِ بيده، من غير خوفٍ من عقاب الله وناره، وهي معانٍ تمنح هذا التعبير شحنةً إيحائيّةً غنيّةً بالظلال والألوان.

٥ – فويلٌ:

وكما في اللفظ السابق، لا يقتصر المعنى الإسلاميّ الجديد لهذا اللفظ على الإنذار بالهلاك والخراب كما هو في الاستعمال الجاهليّ –مع قدرٍ من الاختلاف في السياق اللغوي للّفظ كما رأينا– بل يتجاوزه إلى الهالات الجديدة التي أضْفتْها الأحاديث النبويّة على هذا اللفظ وهي تصف وادي (الويل) المخيف في جهنّم، وما يحيط بهذا الوصف من تفاصيل مرعبةٍ تُلهب الشحنة اللغويّة التي يحملها اللفظ وتزيدها قوّةً وتأثيراً.

٦- ٧- للمصلّين/ عن صَلاتهم:

من حقّ المفسّرين أن يقترحوا في تفسير هذين اللفظين أكثر من معنىً، فهل هي صلاة المصلّين الذين يصلّون ولكن كأنّهم في صلاتهم لا يصلّون، أم صلاة من يُفترض فيهم أن يُصلّوا، ولكنّهم لا يصلّون أبداً؟ وسيوضّح هذا أكثر حديثُنا عن اللفظ التالي.

٨- ساهون:

اختلفوا كثيراً حول معنى (السهو) هنا: هل هو داخل الصلاة أو خارجها؟ هل هم ساهون عن صلاةٍ يؤدّونها حقّاً، ولكنّهم لا يَعُون ما يقولون لأنّ الشيطان يشدّهم بعيداً عنها وعن الله؟ أم هم ساهون عن صلاةٍ يجب أن يؤدّوها، ولكنّهم لا يفعلون ذلك أبداً، مفضّلين عليها اللهو والتجارة وغيرها من أمور الدنيا؟

٩- يمنعون الماعون:

إلى جانب المعاني الكثيرة التي اقترحها المفسّرون للفظ (الماعون) كما رأينا، وما أضفَوه بذلك على اللفظ من أبعادٍ وغنىً وتنوّع، تتضاعف هذه الأبعاد بعدم ذكر المفعول الأوّل للفعل (يمنعون)، كأن يقال مثلاً:

يمنعون الناسَ أو ذوي الحاجة الماعونَ

فبقيت الآيةُ مفتوحةً لكلّ الاحتمالات الممكنة في تقدير هذا المفعول المحذوف.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- فويلُ للمصلّين:

هذا التعبير القرآنيّ أضحى جزءاً من قاموسنا اللغويّ، فكلّما سمعنا حديثاً غير منطقيّ، أو استنتاجاً منقوصاً لا يرتبط بمقدّماتٍ سببيّة، علّقنا فقلنا: إنّك كمن يقول: فويلٌ للمصلّين..

٢- يمنعون الماعون:

وهي عبارةٌ يمكن أن تطلق على كلّ من يمنع خيره عن الناس قلّ أو كثر.

openkan.com